الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد خيضر بسكرة
كلية الآداب و اللغات
قسم الآداب واللغة العربية

مداخلة بعنوان

اللغة والكون

قراءة سيميائية في الملامح الكونية للغة

الدكتورة : دليلة مزوز

السنة الجامعية: 2011/2010 م

اللغة والكون

- **قراءة سيميائية في الملامح الكونية للغة**

مقال منشور بمجلة السيمياء والنص الأدبي العدد 6، قسم الآداب واللغة العربية–جامعة بسكرة–

تمتلك اللغة نظاما قويا ذا بعد كوني، فهي تعكس من خلاله قوة الوجود وحركة الكون ونظامه الذي يمدها بمجموع القوانين والضوابط التي تحرسها من أن تنشق عن ذلك النظام أو تتلاشى.

فاللغة في وجودها نظام من الرموز والعلامات التي تحمل إشارات معرفية تنقلها إلى العالم شيئا فشيئا وبالتساوي بين المعرفة الحسية والمعرفة الذهنية، فلا نبلغ الثانية إلا بارتياد الأولى.

تلك هي غاية اللغة التي تحمل المعاني المخزنة في العالم الفسيح فتحولها إلى معرفة مدركة ، فغاية اللغة القصوى هي ربط بين بدايات العالم ونهاياته، إنها وسيط حيوي تحول العالم الجامد إلى عالم متحرك في المستوى التجريدي، هذا الطرح يدفعنا إلى مناقشة الفرضيات الآتية:

هل نستطيع أن نتواصل مع الكون بوساطة اللغة؟ وما علاقة الصوت بالوجود؟ وكيف يمكن تشغيل العالم باللغة؟ وهل يمكن الحديث عن قانون نحوي مستمد من قانون كوني؟

1-الصوت والوجود:

إن الظواهر الطبيعية وكل المخلوقات تعلن عن وجودها بصوت يبرر قدرتها وارتباطها بالكون، والإنسان واحد من هذه المخلوقات التي تعلن عن مجيئها بصرخة ميلاد، تنتظم هذه الصرخات فيما بعد وتكون انفعالات للغضب أو الفرح، تضطرب فيه المشاعر وتعكس رعشة الكون واضطرابه[1]. فالعالم يترجم مرتين بوساطة اللغة؛مرة إلى أفكار ثم إلى ألفاظ مصوتة تسمع مرتين ، مرة من طرف المتكلم ، وأخرى من طرف المتلقي الذي يعيد تفسير الصوت إلى مفاهيم وإدراكات.

فقوة الصوت اللغوي تتعدى حد السماع وتحريك الحدث إلى ترسيخ المعنى في الذهن والإعلان عن قوة اللغة وتمسكها بالوجود، لأنه ينفخ الحياة في الدال "الأمر الذي يدعو إلى القول دوما عن الكلام إنه حي"[2].

لقد أدرك هوسرل عمق العلاقة بين الصوت واللغة، وبيّن أن استمرارية اللغة مستمد من قوة الصوت الذي يحول الدال "إلى عبارة عازمة على القول ، روح اللغة، إنها لا تخشى الموت في جسم دال ألقي في العالم وفي كاشفية المكان"[3].

فالصوت هو استبطان للغة، إذا ما قورنت بالإشارة التي هي متصلة بالظهورية،إنهما يحملان اللغة ، ولكن الصوت يبقى هو الوجود، حذو النفس ..والصوت هو الوعي"[4]. فإذا ما تحدثنا مع شخص ، فيعني أننا نستمع إلى أنفسنا ونسمع من قبل الآخر، ويعني أن هذا قد تكرر عنده الإنصات على الشاكلة التي حدثت عندي، "فتوليد الانفعال المحض بالنفس دون أي عون من أي خارج كان"[5].

لقد وجدت الإشارات لتكمل مهمة الإبلاغ الذي بدأها الصوت وتكون معادلا موازيا عند ابن عربي الذي يرى أنها تقوم مقام الصوت، يقول:" فإن الإشارة قد أفهمته ما يفهمه الكلام أو يبلغه الصوت"[6].

فالصوت بهذه الصفات هو باث الحياة في الدال والعبارة، ورابطهما بالزمان والمكان حال النطق بهما، وهو أيضا محرك الوجود بالضغط على عنصريه (الزمان والمكان)؛ ويصير بعدها المنطوق مخزونا في ذاكرة الوجود، مثلما هو مخزن في ذاكرة الإنسان، ويتحقق عندنا أن الصوت هو الوجود على قول القائل: أنا أتكلم إذا أنا موجود.

2-تشكيل البنية هو إعادة تشكيل العالم:

إن الرؤيا الواصفة للعالم والمحاطة بسياج من الأفكار والعلامات اللغوية تتسم بدلالات مفتوحة ورموز كثيرة ذات فهوم مختلفة، فالعالم الواقعي والأفكار بينهما تجاور دائب إذ يحيل الأول إلى الثاني، والإنسان باعتباره متأملا في هذا العالم يحمل في ذهنه صورا متعددة وقع عليها الاختيار من مجموع ممكنات أكثر لكي تتحقق "أو هو مجموعة الممكنات التي انتقلت من محيط التصورات اللانهائية إلى محيط حسي ما انفك يخضع لضرب من الصيرورة التي تنتظم في قصدية ما"[7].

فالعلاقة الجدلية بين الواقع المرئي والتصورات الذهنية تدفعنا إلى الانتقال من المرئيات والمحسوسات، وتحويلها إلى عالم المجردات الذي لا يمكن إدراكه بصورة واحدة، ومع ذلك فإن احتمال نقل الصورة ممكن طالما أن الرموز أداة طيعة تعبر عن علاقة الإنسان بالكون نحو اختراق الكون المجرد الذهني والإلقاء به إلى العالم الممكن (الواقع).

فالعلامة عموما هي "تشكل يقتحم منعطفات السلوك الإنساني، ويعدو ضابطا من ضوابط الارتباط بين الفرد والفرد، وبين الفرد والجماعة، ثم بين الجماعات في علاقاتها المتشابكة"[8].إنها بديل لغوي عن الموجودات، "بل إن الموجودات كلها لا يمكن التحاور بشأنها إلا بواسطة العلامات اللغوية المتفق عليها"[9].

فالشرط والأمر والنهي والاستفهام والنفي كلها طروحات الكون تلقفتها اللغة وتباينت ضروب التعبير عنها ببينات تركيبية ينشئها الإنسان ويوجهها حسب مقاصده. فهذه الأساليب تبرز بحق علاقة اللغة بالكون، إنها بنيات "مصوّرة في اللغة لما سنّه الإنسان لنفسه من فعل العقل، فعبّر عن الاقتضاء وبها أجرى الاستلزام ليخرج من سجن الشاهد وخوف الغائب"[10].

وإذا أردنا أن نعرف هل العالم متصل منتظم في ظواهره وأسبابه فإن هذا الاستلزام يقودنا إلى القول بأن اللغة التي تصف هذا الانتظام وهذه القوانين ، تكون هي أيضا ذات ربط وثيق بين أساليبها، وأقصد بذلك أسلوب الشرط والأمر والنهي والاستفهام والنفي حسب ما ذهب إلى ذلك صلاح الدين الشريف في كتابه الشرط والإنشاء النحوي للكون ،إذ يؤكد على العلاقة الدائرية وارتباطها ببقية الأبنية "باعتبارها صورة من دائرة اللغة عامة وتماسك النظام فإنها تعني أن لا كلام يكون ابتداء مطلقا"[11].

إلا أن السؤال الذي يطرح هنا مفاده، هل استطاعت اللغة أن تصف كل قوانين الكون وصفا دقيقا، أم أن هناك عجزا جزئيا يتمثل إما في اللفظ الحامل للمعنى، أو المعنى نفسه ،أو في تصورنا لهذا الكون؟

إذا افترضنا أن العجز يكمن في اللفظ الذي يوكل إليه أمر المعنى الحقيقي الذي يريده المتكلم فإن فهم البنية نحو:جاء زيد غاضبا وعمرو ضاحكا. قد لا يقصد بها زيدا وعمرا لم يكونا على اتصال قبل أن يغضب الأول ويضحك الثاني، وإنما يريد الباث أن يبيّن حالات الإنسان المتباينة، فهو قد يخضع لموقف يغضب الأول ويضحك الثاني، كما أنه أيضا يمكن لهذين الشخصين أن يكونا في مكانين مختلفين ، وجاءا في لحظة واحدة إلى السامع، فالواو هنا لم تكن إلا لمجرد ربط مجيئهما في وقت واحد.

ويرجع صلاح الدين الشريف عجز اللفظ إلى سبب فيزيولوجي لأن اللغة لم تستطع إجبار الإنسان والحنجرة على تأدية أجزاء المعنى دفعة واحدة، ومن ثم كانت بنيتها أعظم من اللفظ الذي تستعمله[12]،فخطية اللغة فتحت المجال أمام تأويلات دفعت إلى تكثيف إنتاج المعنى وتعدده.

3-تزمين اللغة/الزمن الكوني والزمن النحوي:

إن اللغة وعاء زمني بالدرجة الأولى؛ إذ لا يمكن لأي حدث أن يكون معزولا عن الزمن؛ "فالزمان هو الشرط الصوري القبلي لجميع الظاهرات بعامة فكل موضوعات الحواس هي في الزمان وتخضع بالضرورة لعلاقات الزمان"[13].

فالمفهوم الكانطي للزمان أعطى بعدا واضحا ورؤية جديدة قوامها إعادة فهم الظواهر انطلاقا من التجربة الذاتية، عن طريق تفعيل القدرة على تلقي الأحاسيس والمشاعر.

فاللغة واحدة من ظواهر مليونية تقوم على شرط الزمان الذي عمل على تفعيل عناصرها، وتحريك قوانينها وضبطها؛ فالزمن تابع في كل بنياتها الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية ؛ فالبنيات الصوتية ذات صلة مباشرة بالزمن إذ أن الصوت يستغرق زمنا أثناء نطقه، وتختلف الحركات عن الحروف في مداها ، إذ أن حركة الفتحة والضمة والكسرة تستغرق كل واحدة منها نصف ما تستغرقه حروف اللين من الزمن، ولعل ما نجده في نص ابن جني ما يؤكد هذا الطرح العلمي، يقول:"واعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين ... وقد كان متقدمو النحويين يسمون

الفتحة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة .وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة . ألا ترى أن الألف والياء والواو اللواتي هن حروف توأم كوامل قد تجدهن في بعض الأحوال أطول وأتم منهن في بعض"[14].

والواضح أن المد مرتبط بالزمن وفاصل بين أنواعه الثلاثة التي ذكرها ابن جني، فالحركات أقصر مدة وأطولها إذا كانت مضعفة نحو يخاف ينام، يسير، ويطير، ويقوم،ويسوم. فالتوقيت الزمني خاضع "لتنظيم محدد يعتمد على البرمجة الذهنية المسبقة، فإنتاج الكلام آلية دقيقة معقدة الأجزاء متداخلة الوظائف عالية المردود تتطلب توفيقا بين الضواغط الميكانيكية في نشاط النواطق وانسجاما بينها للتواصل إلى تركيب الرسالة المقصودة إضافة إلى استعمال الملكات الطبيعية والمخزون الذهني والمعارف الباطنية والمقامية عن البنى الصرفية والتركيبية والدلالية"[15].

ثم إن هذا الاختلاف في المدى الزمني يتعلق بتنوع المعنى، فإذا كان اللفظ قصير المدى يوحي بسرعة الحدث وانقضائه ، أما إذا كان ممتدا متصلا بحرف مد نحو:طار ، جاء. فإن الحدث فيهما يكون أقل من الزمن في :يطير ، ويجيء . وهذا الامتداد يعكسه أيضا الزمن النحوي المرتبط بالصيغة ؛ فالزمن الأول ماض منقضٍ أما الزمن الثاني فهو مضارع مستمر متواصل.

ويضيف المدّ فائدة أخرى وهي البيان والوضوح ، يقول ابن جني:"إنما تمكن المد فيهن مع الهمزة حرف نأى منشؤه وتراخى مخرجه فإذا أنت نطقت بهذه الأحرف المصوتة قبله ثم تماديت بهن نحوه طلنَ وشِعن في الصوت فوفين له وزدن في بيانه ومكانه"[16].

ترتد اللغة في كثير من خصائصها إلى قوانين الكون، ولاسيما تعلقها بالزمن الذي هو الفلك الذي تجري فيه الظواهر والأحداث . ونجد فرقا بين الزمن الصرفي والزمن النحوي، إذ أن الأول يرتبط بالصيغة الإفرادية، أما الثاني فهو مرتبط بالسياق، والبحث في مضمون الزمن السياقي قاد تمام حسان إلى رصد ستة عشر نوعا من الزمن وهو حسب رأيه "اختلاف في الجهة لا في المضي والحال والاستقبال فهناك تسع جهات مختلفة للماضي وثلاث للحال وأربع للاستقبال"[17].

4- التواصل الكوني:

ليست اللغة أداة للتواصل الإنساني فحسب ،وإنما هي وسيلة للتفاعل مع هذا الكون بكل تفاصيله، والقرآن الكريم وصف هذا التواصل بدقة،وبين لنا أطرافه ووظائفه ، إذ أن هناك تواصلا بين الله والبشر عن طريق الرسل يقول تعالى:"وما كُنَّا مُعذِبينَ حتىَّ نبعثَ رسولًا"[18]،إذ ربط شرط التعذيب ببعث الرسول ، وهذا من شروط فتح التواصل بين الله والإنسان

المكلف بتنفيذ بنود الرسالة الربانية التي تتصف بتكثيف الرسائل الإلهية كل ذلك لإقناع هذا الكائن العاصي الذي ارتد على أعقابه ورفض كل تفويض من الله ، وفضل أن يغلق بعض الشيء منفذ التواصل . وحتى تكون لله حجة على الناس يوم القيامة فإن التواصل ظل مفتوحا ، يقول تعالى :"ولقدْ أرسلنَا نوحًا إلى قومِهِ"[19] ،ويقول :"وإلى ثَمُودٍ أخاهُمْ صالحًا".[20]

وقال أيضا :"إنَّا أرسَلْناَ إلى قومِ لوطٍ"[21]فالله لا يخاطب أحدا من خلقه "بما لا يفهمه عنه المخاطب ،ولا يرسل إلى أحد منهم رسولا برسالة إلا بلسان وبيان يفهمه المرسل إليه إن لم يفهم ما خوطب به وأرسل به إليه فحاله قبل الخطاب وقبل مجيء الرسالة وبعده سواء إذ لم يفده الخطاب والرسالة شيئا كان به قبل ذلك جاهلا والله جلَّ ذكره يتعالى عن أن يخاطب خطابا أو يرسل رسالة لا توجب فائدة لمن خوطب أو أرسلت إليه لأن ذلك فينا من فعل أهل النقص والعبث".[22]

إن اللغة القرآنية حملت بين طياتها كل أسرار الكون ،وعبرت عنها بألفاظ ومعان معجزة تجاوزت حدود لغة العرب،فهي تمثل نهاية اللغة واكتمال المعاني ، وهي أيضا حيز من ماضي الإنسان وحاضره ومستقبله وتصرف النظر إلى بداية خلقه . فالنص القرآني يربط اللغة بالوجود ،هذه اللغة التي تسبق الوجود والراهن "إنها التاريخ السابق على التاريخ فكل فعل إنساني والوعي المرتبط به مسبوقان بفعل اللغة "كان"،يشكل القرآن خطابا يمسح جغرافية الفهم لأنه يجعل القارئ يحتاج أن يفهم وينشيء الفهم المستمر بشقيه : فهم النص وفهم الذات"[23]

وهكذا كان القرآن الباعث الأول والنقطة المحورية للتواصل المتعدد الأبعاد،إنه يبعث بالإنسان لفهم ذاته ثم الانطلاق لفهم العالم حوله،وبذلك ينشئ مساحات للتكلم والفهم والتحليل.

5– كيف نتواصل مع القرآن /كيف نفهمه؟

لا شك أننا أمام كتاب إلاهي ، وأنَّ التعامل معه يجب أن يكون من منطلق الاستعداد لفهمه ،بطرائق تناسب مقام الباث ولغة البث،ولا يجب القطع بأفهامنا ،وإنما يكون هذا الفهم فيه تريث وحرص ثم إخضاع ما تلقيناه لمقياس العقل والتفسير ،وأن نكون على علم أن "ليس فهم كلام المتكلم أن نعلم جميع وجوه ما ضمنته تلك الكلمة بطريق الحصر بما يحتوي عليه مما تواطأ عليه اللسان"[24].

وعند قراءة القرآن ينبغي علينا أن نفرق بين فهمنا للنص وفهمنا للذات المرسلة للنص"فالفهم عن المتكلم ما يعلمه إلا من أنزل القرآن على قلبه ،وأما الفهم للكلام فهو للعامة ،فكل من فهم من العارفين عن المتكلم فقد فهم الكلام وما كل من فهم الكلام عن المتكلم ما أراد به على اليقين له من كل الوجوه أو بعضها. [25]

فالنص القرآني وصل إلينا عن طريق الكتابة التي حفظت اللفظ والمعنى ورافقتهما حضور الذات الإلهية التي تظهر وراء كل أمر ونهي.فلا بد لنا أن نرتقي إلى هذا النص الذي حوى خطابا إلهيا وذاتا إلهية فنكون في مواجهة الفهم المتعالي المرتبط بالصورة الأزلية الناتجة عن الخطاب القرآني المكتوب والذات الإلهية اللامنتهية.

القرآن الكريم وصف العالم بكل تشكلاته التي تظهر في ثلاث أبعاد حسبما بينها النيسابوري في تفسيره وهي:الإحاطة ، والانفصال، والتعالي [26]، وهذه جهات عبرت عنها السور والآيات حملت الإنسان على فهم ما يحيط به من أسرار الوجود.

6- اللغة بديل عن الكون/وسيط لفهم الكون:

الرمز اللغوي إطار قديم اختاره الإنسان للتعبير عن علاقته بالكون وعن" مرتبة من الرقي العملي والسلوكي والذهني في نفس الوقت"[27] ،غير أن العلامة أضحت في العصر الحديث أوسع دورا وتفسيرا لما حولنا من مظاهر كونية : فهي تشكُّل "يقتحم منعطفات السلوك الإنساني، ويغدو ضابطا من ضوابط الارتباط بين الفرد والفرد، وبين الفرد والجماعة ثم بين الجماعات في علاقاتها المتشابكة"[28].

وقد نرتقي مع ابن عربي وغيره من علماء الدين إلى الحديث عن أنَّ القول أساس الوجود،وأن الكون كله انبنى على كلمة "كن"" فما ظهر العالم إلا عن صفة الكلام وهو توجه نفس الرحمان على عين من الأعيان ينفتح في ذلك النفس شخصية ذلك المقصود،فيعبر عن ذلك الكون بالكلام وعن المتكون فيه بالنفس"[29]

ويُفسَر النفَس في الكلام بحركات الرفع والنصب والخفض ،كما تنقسم مدارك العالم إلى ثلاث حركات علوي وهو عالم الغيب ،وسفلى وهو عالم الشهادة،ووسط بينهما وهو البرزخ.

فالإنسان يطوع اللغة بحيث تختزل الجهد عن طريق ترسيخ قوة التصوير،وسلطة اللفظ التي تتوغل إلى النفس مثلما تخترق حدود الإدراك،فإذا بالإنسان يصير لحمة واحدة مع مجتمعه الإيماني،ويمد حبل العروة الو ثقي بربه،ويزداد فهما لدنياه، ويتعمق في ذاته حبه للآخرة. و هي بهذا تكون قد اخترقت حدود الزمان والمكان ، وجمعت بين المدرك والمحسوس ، وحولت العالم إلى جملة يتداولها الناس فيما بينهم ، وتلك هي خلاصة فُهُوم الناس ومقاصدهم إنها"المفتاح الوحيد الذي يتوصل به الإنسان إلى اقتحام الكون من حوله ، وهي بذلك الجسر الفريد الذي يتحاور عبره مع الوجود ليتفاعل معه متخذا إياه مجهرا يعكس تميز الموجودات بعضها من بعض، واللغة بهذا ترتقي في منازل الوجود الإنساني وكمالاته فتغدو صورة لتوازي مداركه في التدرج نحو استيعاب الكون وجودا وعقلا ثم تصرفا ورويةً"[30].

ولعل إدامة النظر في مراحل الرسالة الربانية التي مرت بالمحسوسات لترتقي إلى المجردات ،هو ارتقاء ذاتي بالإنسان الذي صار يدرك الأمور عن طريق لغته التي ارتقت لتحكم قوانين الكون بالوصف والتحليل وتحولت إلى حجة عقلانية الإنسان وقوام وجوده "فيكون الكلام حجة العقل على الإنسان مثلما كان العقل حجة الإنسان على وجود الإنسان"(31).

فقد أصبح الكل يعلم أنه من دون العلامات اللسانية لا يمكن أن تتجسد آليات الفكر الإنساني وكان هذا اتجاه كثير من الفلاسفة ،نحو هوبز ولوك وباركلي . وغير بعيد عن هذا نجد فايسغيربر يرى أن "العلامات اللغوية ذاتها ثمرة النشاط العقلي ونتيجة تحول الطبيعة ذاتها من الوجود الفيزيائي إلى عالم عقلي وسيط" (32).

7– اللغة استبطان للذات:

فإذا كانت اللغة مرآة عاكسة للفكر، تنقل وتحلل كل مظاهر الكون فإنها أيضا أداة نفسية تتغلغل في أعماق النفس البشرية.

وتعمل على تدفق المحتوي الداخلي للنفس والذهن وقد عدها إدوارد سابير :"أداة قادرة على تشغيل سلسلة من الاستعمالات النفسية، وتدفُّقُها لا يتماثل مع تدفق المحتوى الداخلي للوعي فقط ،بل مماثله على عدة مستويات ابتدءا من حالة الذهن التي تهيمن عليها صور معينة إلى الحالة التي ينصرف فيها الانتباه إلى المفاهيم المجردة وعلائقها فقط،وهي الحالة التي تسمى تقليديا بالتفكير الاستدلالي" . (33)

ويبدو أن اللغة في بعديها الداخلي والخارجي مختلفة؛ فإذا كان الشكل الخارجي ثابتا،فإنها داخليا تختلف في تحركها باختلاف التركيز أو انشغالات الذهن. إنهاحديث النفس إلى النفس وحوار بينهما ،إذ بها ندرك ذواتنا من الداخل ونعبر عن مشاعرنا ، ونجعل الكون بين ألسنتنا ومحمولا على ألفاظنا إلى الآخرين ليحدث التفاعل بين الصورة واللفظ ،فنعيد تمثل الكون الداخلي والخارجي بفعل أفكارنا التي لا تنقطع .ثم إن التنوع في التعبير عما يختلج في النفس وما تقع عليه العين يكون بتنوع الألفاظ والعبارات التي تعكس تنوع وجوده في الكون من ظاهر وخفي،وبعيد وقريب ،ومن مدرك وغير مدرك . وفي هذا يقول أبو نصر الفارابي :"فإذا استقرت الألفاظ على المعاني التي جعلت علامات لها فصار واحد لواحد ،وكثير لواحد،أو واحد لكثير ،وصارت راتبة على التي جعلت دالة على ذواتها ،صار الناس بعد ذلك إلى النسخ والتحيز في العبارة بالألفاظ ،فعبر بالمعنى بغير اسمه الذي جعل له أولا وجعل الاسم الذي كان لمعنى ما راتبا له،دالا على ذاته عبارة عن شيء آخر متى كان له به تعلق ولو كان يسيرا إما لشبه بعيد أو لغير ذلك ،من غير أن يجعل ذلك راتبا للثاني دالا على ذاته ،فيحدث حينئذ الاستعارات والمجازات والتجرد بلفظ معنى ما

عن التصريح بلفظ المعنى الذي يتلوه متى كان الثاني يفهم من الأول ،وبألفاظ معان كثيرة يصرح بألفاظها عن التصريح بألفاظ معان أخرى إذا كان سبيلها أن تقرن بالمعاني الأولى متى كانت تفهم الأخيرة مع فهم الأولى"[34]

وخروج اللفظ عن معناه الصريح إلى دلالات أخرى تتمتع بالتأويل لرغبة الإنسان النفسية في إخفاء الأمارات الحقيقية، ودفع العقل للبحث عنها والنفس لتحسسها.

ومن الطريف لدى الإنسان أنه أكثر من تنويع العلامات إلى علامات لغوية ،وإشارات وأمارات ورموز ، وأعداد وحول كل هذه إلى دلالات قصديه ليقف في آخر المطاف على الأنظمة الدالة على الكون. [35]

8- الحرف العربي محاكاة لأشكال كونية:

لجأ الإنسان الأول إلى ما يحيط به من ظواهر طبيعية ليصطنع لنفسه رموزا تعبيرية ،فجعل من الحروف العربية فسيفساء كونية تحكي في شكلها الراقي حياة الإنسان منذ فجر التاريخ وحتى عصرنا الحالي ؛ إذ اختزل بعمله هذا شكل العالم وأعاد صياغته بفكره الذي نقله عبر هذه السمات المرئية ونقل معها دون شعور منه مبدأ الانسجام والتواصل الواقع فيها .

فالعملية التفكيكية التى أحدثها ؛ - تفكيك للصورة والشكل وإعادة تركيبها بما يخدم فكره — تضمن الحفاظ على العلاقات القائمة بين عناصر الوجود. فإذا تأملنا حركات الإنسان وملامح وجهه ونبرات صوته فإننا نلحظ تقاربا بل محاكاة لبعض الحروف في شكلها أو نطقها نحو الواو في حركة الفم أثناء التعجب ، والباء التي تحكي الابتسامة والياء التي تحكي الامتعاض يرى لوك (look) أن هذه الإشارات هي اللغة الأصلية وهي العمليات الأولى التى اصطنعها الإنسان لصياغة أفكاره. [36]

تحدد الكتابة على أنها « رموز مرئية للأصوات اللغوية المسموعة، بينما الكلام المنطوق هو موجات صوتية مسموعة متعارف عليها بين أبناء مجتمع لغوي واحد،أو بين عدد من المجتمعات ذات الأصل الواحد واللغة المشتركة». [37]

والحرف عند الحكماء هو «ما له طول، لكن لا يكون له عرض ولا عمق ، وهو الذي يقبل الانقسام طولا لا عرضا ولا عمقا ونهايته النقطة. واعلم أن الخط والسطح والنقطة أعراض غير مستقلة الوجود على مذهب الحكماء، لأنها نهايات وأطراف للمقادير عندهم فإن النقطة عندهم نهاية الخط وهو نهاية السطح وهو نهاية الجسم التعليمي». [38]

إن بحثا استقصائيا يهدف إلى معرفة أصل شكل الحرف في الطبيعة ؛ إذ أن الألف يقابله العدد 1 والإله الواحد والثور الذي يحمل قرنين فوق رأسه شبيهة بالألف في وضعها الفرنسي A ، وشكله العمودي يوحي بتفرده وهو من الحروف الأصيلة في العربية يكون علامة على التأنيث والتعريف والمثنى ويرد همزة قطع ووصل...

وأما حرف الباء فكان يرمز به إلى البيت أو أحد أجزائه ويستوحي عباس حسن صفات للباء التي تعد أكثر تمثيلا للبقر والبجع وأنه يوحي بالقوة والشدة في الرجل الأب. (39)

وأما التاء فإنها شبيهة بالمطرقة في حرفها الفرنسي وتُنطق بصور مختلفة عند الفينيقيين وهو شبيه في نطقه بحرف الطاء عند سكان باتنة وشبيه في نطقه بحرف السين عند سكان قسنطينة .

والعين منقولة عن شكل العَيْن واسمها ، أما الراء فهو في معناه ريش الطائر ويشبه في شكله ريشة الطائر والطاء مهبط الوادي ، واللام معناها السهم أو الشجر الأخضر وهي في شكلها شبيهة في حركة أعضاء النطق حين نطقها .

وأما حروف القرآن فهي قائمة بأشرف رسالة وأعظم ما أنزل على البشر .حملت الإعجاز ونصَّت عليه فكانت الحروف المقطعة التي تصدرت تسعا وعشرين سورة واحدة من المعجزات التي قدمها القرآن للبشر واختُلف في مفهومها من طرف المفسرين ؛ فمنهم من قال : هي مما استأثر الله بعلمه فردوا علمها إلى الله ولم يفسروها ، ومنهم من فسَّرها وقال هي أسماء سور بدليل سورة (ص) و(ق) وذهب فريق ثالث إلى أنها من أسماء القرآن ويُقصد بها السورة ،وقيل أسماء من أسماء الله تعالى . (40)

ويضيف السيد قطب رأيا فيه بعدا حداثيا ورؤية إعجازية ،يقول:«من هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب الحكيم الذي ينكرون أن يكون الله قد أوحى به إلى الرسول وهذه الحروف في متناول أيديهم ، ثم لا يبلغون أن يؤلفوا منها آية واحدة من مثل آيات الكتاب كما يتحداهم في هذه السورة ،ولا يقودهم هذا إلى التدبر وإدراك أن الوحي هو مفرق الطريق بينهم وبين الرسول ،وأنه لولا هذا الوحي لوقف وقفتهم عاجزا عن تأليف آية واحدة من هذه الحروف المبذولة للجميع»(41)

وإذا تدبرنا معنى (ا لم) الوارد ة في مطلع سورة البقرة نجد أن هذه الحروف هي أصول المخارج ، مرتبة على مدرج الجهاز النطقي من الأدنى إلى الأوسط إلى النهاية (آخر مخرج هو الشفتان) ،فالألف للبداية واللام للتوسط والميم للنهاية ؛ بداية الوجود والحياة كانت بالخلق :" وفي خلقِكُم وما يبثُ من دابةٍ آيةً لقومٍ يوقنونْ(42) وكان التشريع وبيان الأوامر والنواهي متوسطا بداية الخلق ونهايته. قال تعالى:"ثم جعلْناكُم على شريعةٍ من الأمْر فاتَّبعْها ولا تتبعْ أهواءَ

الذين لا يعلمُونَ "[43] وكانت النهاية باستحضار العقاب للكافرين،قال تعالى "وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين"[44]

تلك هي حدود الله في خلقه إذ جعل الإنسان في المرتبة الأولى لهذا الخلق ووجه له القرآن ليكون له منهاجا وسلوكا يسترشد به لفهم الكون وجعل اللغة العربية لغة كونية تحمل كل أسراره وتفسرها .

ملامح كونية في النحو العربي:

النحو العربي قانون يحكم اللغة ويضبطها ويحفظها من التلاشي؛ هذه اللغة التي تعد ظاهرة من الظواهر المطروحة أمام الإنسان في هذا الكون. فهل معنى هذا أن النحو قانون كوني تسرّب إلى اللغة واتصف بها وذاب في نظامها، أم أنه قانون خاص باللغة نابع منها ولا علاقة له بالظواهر الكونية؟.

وحتى نتحصل على جواب مقنع فإننا نحاول استنطاق بعض الأبواب النحوية التي نرى أنها قريبة من قانون الكون نحو: العدد، والنوع والمفرد والتثنية والجمع والإشارة والموصولات وغيرها كثير مما لا يسع المقام لذكرها.

الإنسان مخلوق كوني لا يمكنه الانفصال عن قانون الكون أو الخروج عن إطاره، وطالما أن اللغة خاصية إنسانية فهي خاضعة/تابعة لهذه التأثيرات الجانبية أو المباشرة التي يتعرض لها الإنسان ومن ثم لغته، فهو في ممارسته الدائمة للغة يحتاج إلى إثراء معجمه اللغوي،وتطوير نطقه للكلمات والرقي بها، إلى المرجع الأوحد له في ذلك فيلتف إلى ما يحيط به من أشكال ومظاهر، ويعمل عقله فيها ويحولها إلى معارف مدركة ثم يعيد صياغتها على لسانه كلاما متواصلا يحاور به ذاته أو إنسانا آخر يشاركه الحدث. وترتقي محاوراته لتبلغ درجة خالقه ليفتح بابا آخر للتواصل. هذا التواصل المتعدد الأوجه، يحتاج إلى دوال ومدلولات مختلفة ومتنوعة لوصف الأحداث والأشخاص، فرادى وجماعات، فإن اللغة أوجدت ما يسمى بالمفرد والمثنى والجمع للتعبير عما تقع عليه العين، أو يدركه العقل فيحتمل على اللفظ وينقل من مكان وقوعه إلى مكان روايته فيندمج المكانان ويتوازى الزمانان، زمن الوقوع وزمن الحكاية.ثم يتلاشى الحدث الحقيقي ويبقى الحدث المروي خالدا تحمله الحروف والصيغ والإشارات.

نحو:حَفظْت الأياتِ، وقرأْتُ السورَ.

1 –الجمع بين النحو والكون:

إن الجمع حامل لكثير من المعاني؛ فهو يدل على العدد والنوع والإشارة والصلة والحدث؛ فهو يدل على العدد المعبر عنه بثلاثة فأكثر، وبين سمة الجماعة وجهتهم وطريقة اتصالهم بالحدث في الواقع، نحو: التقيت بالرجال الذين حرروا الوطن. فالاسم الموصول "**الذين**"ربط بين جهتي الجملة الدالة على زمن الحاضر وزمن ماض، لتحدد أن هؤلاء الرجال الذين صنعوا النصر بالأمس قد التقيت بهم اليوم.

فالجمع في اللغات الطبيعية واللغة العربية دليل على تكرار الحدث أيضا "وتردده وعادة وقوعه واستمراره وتوزيعه على المشاركين فيه وتعدد فاعليه أو مفعوليه "[45] ولكن لماذا جُعلت الواو دالة على الجمع في العربية؟.

إن الإجابة على هذا السؤال يقتضي منا الرجوع إلى البنية الصوتية لحرف الواو التي تظهر في نطْقها اتصالا وانفصالا أو انغلاقا وانفتاحا. وتنعكس هذه السمات النطقية في شكلها على واو الجمع وواو العطف. فواو العطف يجتمع بواسطتها " عنصران اجتماعا مطلقا أساسه الاشتراك في الحكم، فهي أداة الجمع المتصل دون قيد أو شرط"[46] .

وهي تندرج ضمن الأصول الأحادية الشفوية التي تشترك في الدلالة على الجمع، ويمكن تأويل ذلك بطريقة نطقها التي تحدث بضم الشفتين فتكونان على شكل حرف"O " الفرنسي ثم فكهما فيشكلان الجزء السفلي من الواو الشبيه بحرف "الراء" ومن ثم فإن هناك اتصالا بين نطق الواو وصورتها المكتوبة ودلالتها على الجمع والعطف. والجمع كان في صورته الأولى عطفا فهو يتمثل فيمايلي:

مسلم ومسلم ومسلم= مسلمون، فدلت الواو في مسلمون على جمع لعدد من الأشخاص اتصفوا بصفات معينة. فالاقتراب الحاصل بين واو الجمع وواو العطف آت من جهة أن المعنى الذي تحمله هذه الواو هو الجمع بين " معنيين مقترنيين اقترانا مطلقا في الذهن، ولذلك كانت أوسع الأدوات استعمالا وعموما من حيث المعنى"[47] .

ولعل ما يمكن رصده هنا أن الواو أيضا مثّلتْ ضميرا عائدا في نحو: الأولاد يكتبون، فهي تشير إلى الأولاد وتبين التطابق الحاصل بين العنصرين في الجمع.

ومن خلال ما تقدم تبين أن الواو لها وظائف متعددة أبرزها:

1- الترتيب
2- الجمع
3- العطف
4- الضمير العائد
5- الاختزال
6- المطابقة
7- الإشارة
8-الحدث
9- النوع (مذكر ومؤنث).

وهي لاصقة اشتقاقية تختزل المعاني المتضمنة في الجملة وتكون بديلا عنها.

2- المذكر والمؤنث ثنائية وجودية انتقلت إلى النحو العربي:

المؤنث والمذكر من الثنائيات الكونية التي حفظها لنا القرآن الكريم عرفانا ولسانا، قال تعالى:" **قُلْنَا احْمَلْ فيها من كل زَوجَيْنْ اثنَينَ**"[48] ثم إن هذه الثنائية الضدية المتلازمة تتحقق في كل المخلوقات وحتى في كل الموجودات.

فقد اكتشف العلماء أن الذرة التي هي أصغر لبنة في الكون مما تتمثل فيها صفات العنصر الواحد تتكون فوق النيوترون وهو محايد الشحنة من بروتون موجب الشحنة في نواتها ويُضَادُه إلكترون سالب الشحنة يدور حولها. ثم إن الذرة في أطيافها التي تتصف بها نوعان: أطياف انبعاث وأطياف امتصاص"[49] .

هذه العلامات الدالة على أن الكون كله يتكون من زوجين اثنين ،تعكس قدرة الخالق المتفرد بخلقه ووجوده، كل ذلك نقلته إلينا اللغة بأمان ، وأوجدت له صيغا ودلالات لتحاكي العالم الكبير في أشكال صغيرة يدركها العقل البشري. فكان لها المؤنث والمذكر الحقيقي، وابتدعت المذكر والمؤنث المجازي ، وهي صورة من صور القياس وتصنيف المعاني المجردة التي لا يمكن التمييز بين مذكرها ومؤنثها إلا باللفظ ثم إلحاقها بالمؤنث الحقيقي بإضافة علامات التأنيث التي ذكرها النحاة وهي: التاء والألف المقصورة والألف الممدودة نحو : ظلمة ، وبشرى ، وصحراء "[50] .

3- الذكر والحذف:

هما مظهران من المظاهر اللغوية ، والتي يميل إلى تداولها مستعملوا اللغة بحسب مقاصدهم وأغراضهم، وهو يقابل في الكون ثنائية الظاهر والباطن، مع العلم أن الحياة فيها المحسوس والمعنوي، والمشاهد والخفي، وهذه واحدة من قدرة الله في الكون.

وترجع ظاهرتي الحذف والذكر إلى المتكلم الذي له مطلق التصرف في حذف عنصر والإبقاء على آخر أو ذكره. وقد أشار سيبويه إلى دور المتكلم في القيام بالحذف يقول واعلم أنهم مما يحذفون الكلم ، وإن كان أصله في الكلام غير ذلك ويحذفون ويعوضون ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يستعمل حتى يصير ساقطا""[51] وما يقال في شأن الحذف يقال أيضا في الإظهار فالمتكلم " إن شاء أظهر في هذه الأشياء ما أضمر من الفعل" "[52] .

فلا قوام للحذف أو الذكر دون متكلم كما لا يمكن لوجود أشياء غيبية دون خالق قادر على كشف أشياء للإنسان وإخفاء أشياء لا يقوى على تحملها عقله.

وخلاصة القول :

إن اللغة ظلت تحاكي الكون بنظامها ،تختزل مظاهره وقوانينه الظاهرة والباطنة ، والثابتة والمتحركة ، والعامة والخاصة، والأصلية والفرعية. وبقي معها النحو –خلال مسيرته الطويلة – يبحث عن أسس الاندماج في العالم والتقيد بضوابطه

والانصراف إلى تحوله إلى ملكة تصويرية هي أداة في تمثل العالم وتمثيله على أساس أبعاد مضبوطة ماثلة في جميع المجالات لعل أهمها تركُب الكلم وفق الأقسام النحوية والأبنية الصرفية التركيبية.

الهـوامش والإحـالات :

[1] أقصد الكون الإنساني، والعالم المحيط به، فهما في تفاعل مستمر كلامهما يفسر الآخر.

[2] جاك دريدا، الصوت والظاهرة مدخل إلى مسألة العلامة في فينومينولوجيا هوسرل، ترجمة:د.فتحي انقزو، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب ط1، 2005، ص128.

[3] المرجع نفسه ، ص128.

[4] المرجع نفسه، ص31..

[5] المرجع نفسه، الموضع نفسه.

[6] الفتوحات المكية، تحقيق وتقديم:عثمان يحي، تصدير ومراجعة ابراهيم مدكور، المجلس الأعلى للثقافة والتعاون معهد الدراسات العليا بالسوربون الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج2، ص504.

[7] وليد منير، النص القرآني من الجملة إلى العالم ، العهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة، 1997، ص69.

[8] عبد السلام المسدي،ما وراء اللغة ،بحث في الخلفيات المعرفية، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس، ص56.

[9]المرجع نفسه ، ص59.

[10] محمد صلاح الدين الشريف، الشرط والإنشاء النحوي للكون، جامعة منوبة، تونس ، 2002، ج1، ص26-27.

[11] شكري المبخوت، إنشاء النفي وشروطه النحوية والدلالية ، مركز النشر الجامعي وكلية الآداب والفنون والإنسانيات ، جامعة منوبة ، تونس،2006، ص190.

[12] الشرط والإنشاء النحوي للكون، ص46-47.

[13] عموائيل كانط، نقد العقل المحض، تحقيق: موسى وهبة، مركز الإنماء القومي، ص66.

[14] سر صناعة الإعراب ، تحقيق أحمد فريد أحمد ، المكتبة التوفيقية، ج1، ص28.

[15] عبد الفتاح إبراهيم ، التنظيم الزمني في العربية سماعيا ، دراسة في البنية الكمية للأصوات العربية عند رواة تونسيين ، جامعة منوبة ، 2006 ، ص39-40.

[16] الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط4، 1999، ج3، ص125-126.

[17] اللغة العربية معناها ومبناها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1979، ص246.

[18] الإسراء/ 15.

[19] هود/25.

[20] هود/61.

[21]هود/70.

[22] الطبري ، تفسيرالطبري ، دار الفكر، بيروت ، 1978م، ط1، ص5 .

[23] عمارة ناصر اللغة والتأويل، مقاربات في الهيرمينوطيقا الغربية و التأويل العربي الإسلامي، الدار العربية للعلوم ، ناشرون ، ومنشورات الاختلاف، ط1، 2007م، ص101 .

[24] أبو المواهب الشعراني، الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية، دار الجيل، بيروت، 1988م، ص93 نقلا، عن عمارة ناصر اللغة والتأويل ، ص105.

[25] المصدر نفسه ، ص106.

[26] نظام الدين النيسابوري، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، مطبوع على هامش الطبري، ص25.

[27] عبد السلام المسدي، ماوراء اللغة بحث في الخلفيات المعرفية ، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع ، تونس، ص56.

[28] المرجع نفسه، الموضع نفسه.

[29] الفتوحات المكية، ح2، ص181.

[30]عبد السلام المسدي،ما وراء اللغة ،ص108 .

[31]المرجع نفسه، ص109.

[32]عز العرب لحكيم بناني ، الظاهراتية وفلسفة اللغة ، تطور مباحث الدلالة في الفلسفة النمساوية ، إفريقيا الشرق، المغرب ،2003 ، ص127.

[33]عبد السلام المسري،ما وراء اللغة ،ص109.

[34]عز العرب لحكيم بناني ،الظاهراتية وفلسفة اللغة ،ص127.

[35]إدوارد سابير وآخرون، اللغة والخطاب الأدبي، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1993، ص19.

[36] أحمد يوسف ،الدلالات المفتوحة،ص 69.

[37] حلمي خليل مقدمة لدراسة علم اللغة ،دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية ،2003 م،ص 29.

[38] الشريف الجرجاني ،التعريفات ، تحقيق عبد المنعم حنفي ،دار الرشاد ،القاهرة،ص 111 .

[39] عباس حسن، www-Aw-dam.org

[40] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تقديم: عبد القادر الأرناؤوط، دار بن باديس، الجزائر، ط2،1998 م، ج1، ص61-62 .

[41] في ظلال القرآن، ج8، ص1654.